اقـــــرأ

دراسة دلالية نحوية

محمد عبدالله جبر

معهد تعليم اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

القضية:

كان أول ما نَزَل من القرآن على محمد ﷺ في غار حِراء قول الله تعالى في أول سورة "العَلَق": ﴿اقْرَأْ﴾[1]، وكان من عادة محمد ﷺ أن يقضي في ذلك الغار الليالىَ ذوات العدد، قد تبلغ شهراً من كل سنة، معتكفًا يتحنَّث[2]، ويعبد الله على ما اهتدى إليه بفِطرته، مُجتنبًا ما كان عليه أهل مكة؛ فلم يكن يتقرب إلى الأوثان، ولا يأتي ما كان قومه يأتونه من أمور الدين. وقد عُرف عنه أنه كان أُمِّيًّا؛ لا يكتب، ولا يقرأ[3] بِما نفهم اليوم من معنَى "القراءة".

وفي حِراء يتمثل له جبريل عليه السلام، ويقول له: "اقْرَأْ"، فيُجيبه محمد ﷺ إجابة مَن فَجَأَه أمر غير مألوف ـ وقد كان كذلك حقًّا ـ: "ما أقرأ؟"، فيَغُطُّه، ثم يُرسِله ويقول له مرة أخرى: "اقْرَأْ"، ويتكرر هذا ثلاثًا، ثم يقول له جبريل: ﴿اقْرَأْ باسْم ربِّك الذي خَلَق﴾، فيكون هذا أول الوحي في خمس آيات.

* فماذا كان المراد من "اقْرَأْ"، ولم يكن محمد قارئًا؟

* واقترن بالباء معمول "اقْرَأْ" ـ وهو فعل متعدٍّ بنفسه ـ فتأوَّل النحويون وأصحاب المعاجم اقترانه بالباء؛ فجعلوا منه قاعدة استثنائية لا داعيَ لَها[4]، وتأوَّلوا ما وَرَدَ عن العرب من ذلك[5].

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح؛ الحديث الثالث من كتاب "بَدْء الوَحْي" ١: ٧٧ ط. الأميرية، ١٣١١ هـ.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١: ٢٥١، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، ط. الحلبي، القاهرة، ١٩٣٦ م.

(٣) هذا مفهوم جوابه لجبريل في الرواية التي تذكر "ما أنا بقارئ"، والمشهور عنه ﷺ أنه لم يكن يكتب ولا يقرأ.

(٤) ذكر ابن هشام شاهداً على الموضع الثاني مما تُزاد فيه الباء ـ وهو المفعول به ـ قول الراعي النميري:

هُنَّ الحرائرُ لا رَبَّاتُ أحْمِرةٍ سُودُ المحاجِرِ، لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ

(مغني اللبيب: ٢: ١٦٣).

ومَثَّلَ به في "أنْ" للأمر نفسه، وكرَّر ابن منظور هذا القول واستشهد بالبيت نفسه. (لسان العرب: ق ر أ).

(٥) نقل ابن هشام تضمين "يَقْرَأْنَ" معنى: يَرْقِينَ ويتبرَّكْنَ!، لِتسويغ الباء. (مغني اللبيب: ٢: ١٦٣).

* وفي ظني أن تجلية الأمر تحتاج إلى تتبُّع ما كان يُفهَم من هذا اللفظ منذ أقدم مرحلة معلومة من مراحل استعماله قبل أن يتَّخذ مفهومَه الحاليَّ.

* وليس ببعيد من هذه القضية ما يُفهِمه الفعل "أُتْلُ"؛ إذ يبدو كأنَّ بينه وبين "اقْرَأْ" ترادفًا، أو كأنَّ بينهما تداخُلاً في أقلِّ تقدير؛ فهما يرِدان في "القرآن" الكريم في سياقات متشابهة أو تكاد. وتتبُّع تصرُّفات الفعلَين وسياقات ورودها في النص القرآني قد يُعِين على بيان ما يُمكِن فهمه من كلِّ فِعْل، بصورة تجلو ما بينهما من أوجُه التقارُب والتباعُد والتداخُل.

* ولقد غَبَرَ زمن غير قصير عرَف فيه تعليم العربية في مراحل الدراسة الأولى ما كان يُعرَف بدَرْس "المطالَعة" ويُعنَى فيه المُعلِّم والتلميذ بـ "القِراءة" الجَهْرِيَّة، وإجادة النطق والإلقاء، وما كان درس "القِراءة" يَعني غير هذه الصورة من المطالَعة حتى إنَّ الكتب المدرسية المخصصة لذلك كانت تحمل اسم "المطالَعة المُختارة"، لِذا رأيتُ أنَّ تفهُّم ما يؤدِّيه الفِعل "طالَعَ" قد يفيد في هذا المجال.

* والمؤلَّفات في تفسير القرآن العظيم وفي شرح الأحاديث تُقدِّم ـ بغير شك ـ فوائد تاريخية ولغوية ذات نفع جليل فيما يخُصُّ هذا العمل؛ بإيضاح الموقف، والحالة التي كان عليها الرسول ﷺ عند تعرُّضه ـ وهو بحالته البَشَرِيَّة ـ لهذا الأمر الذي تلقَّاه مِمَّن يختلف عنه في كل مظاهر الخَلْق بما لم يكن يعهد من الصورة والهيئة، أو بما قد نجِد من روايات فيها تفصيل أو توضيح وفَضْل بيان لذلك الموقف، أو قول قد يكشف عن احتمال توجيهٍ إلى معنًى لم يلتفِتْ إليه السابقون في تناوُلهم لهذا الأمر.

* أضيفُ إلى ما سبَق أنَّ دُعاة كثيرين مِمَّن يسعون إلى المباهاة بالإسلام يرفعون شعار أنَّ الإسلام يحضّ على طلب العلم؛ ويستدلّون على ذلك بأن أول آية نزلت من القرآن: "اقرأ"، وهي تدعو إلى "القراءة"، والقراءة في مفهومهم تعني مدلولَها الحديث، ولم يدركوا ما اتخذه اللفظ من معنى مختلف في خلال الزمن.

مادة " ت ل و " في لسان العرب:

يقدِّم اللسان معنيَين لمادّة " ت ل و " :

الأول: معنى الاتِّباع؛ يقول: تَلَوْتُهُ تُلُوًّا: تَبِعْتُهُ، وهذا تِلْوُ هذا أَيْ: تَبَعُهُ، وقوله تعالى: ﴿الذين آتيْناهُمُ الكتابَ يتْلُونه حَقَّ تِلاوَته﴾ (١٢١: البقرة) معناه: يتَّبِعُونه حَقَّ اتِّباعه، ويعملون به حَقَّ عَمَلِه.

الثاني: معنى القراءة؛ ينقل عن الليث: تَلاَ يَتْلُو تِلاَوةً يعني: قَرَأَ قِرَاءَةً.

ولعلَّ المعنى الثاني أن يكون آتيًا من المعنى الأول؛ فالتلاوة تتبُّع كلمات قِيلتْ قَبْلُ، وأداؤها باتِّباع ما جاء فيها، مع إعلانه والجَهْر به.

والمعنَيان متحقِّقان في الاستعمال القرآني:

الأول: حين يرِد الفِعل "تَلا" وتصرُّفاتُه متعدِّيًا إلى المفعول به بغير أن يتعلَّق به مجرور بـ "عَلَى" كما في قوله تعالى:

١. ﴿والشمسِ وضُحاها والقَمَرِ إذا تَلاها﴾ (الشمس).

٢. ﴿أتأمرون الناس بالبرِّ وتَنسَوْنَ أنفُسَكم وأنتم تَتلُون الكتابَ﴾ (٤٤: البقرة).

٣. ﴿أفَمَنْ كان على بيِّنة من ربِّه ويَتْلُوه شاهدٌ منه﴾ (١٧: هود).

٤. ﴿واتْلُ ما أُوحِيَ إليك من كتاب ربِّك﴾ (٢٧: الكهف).

٥. ﴿اُتْلُ ما أُوحِيَ إليك من الكتاب﴾ (٤٥: العنكبوت).

٦. ﴿الذين آتيناهم الكتاب يَتْلُونَه حَقَّ تِلاوَته﴾ (١٢١: البقرة).

٧. ﴿إنَّ الذين يَتْلُونَ كتابَ الله.....﴾ (٢٩: فاطر).

والثاني: حين يَرِد مع الفِعْل حرف الجرّ "على" كما في قوله تعالى:

٨. ﴿يَسمَع آياتِ الله تُتْلَى عليه ثم يُصِرُّ مستكبراً كأنْ لم يسمعْها﴾ (٨: الجاثية).

٩. ﴿واتْلُ عليهم نَبَأَ نُوحٍ﴾ (٧١: يونس).

١٠. ﴿وإذا تُتلَى عليهم آياتُنا قالوا: قد سمِعْنا.....﴾ (٣١: الأنفال).

مادة " و ل ي " في لسان العرب

وتشارك مادة "و ل ي" مادة "ت ل و" في المعنى الأول؛ أعني: الاتِّباع، فالمولَى هو "الحليف، وهو مَن انضمَّ إليك"، و "الولىُّ: التابع المُحبّ" و "تَوالىَ الشيءُ: تَتَابَع، والمُوالاة: المُتابَعة، وافعلْ هذه الأشياءَ على الوِلاء؛ أيْ: مُتابَعةً، وتَوالىَ عليه شهران؛ أيْ: تتابَع، يُقال: والىَ فلانٌ برُمحه بينَ صَدْرَيْن؛ إذا طَعَن واحداً ثم آخَرَ من فَوْره، وكذلك: الفارسُ يُوالي بطَعنَتَين مُتواليَتَين فارسَين؛ أيْ: يُتابِع بينهما قتلاً، ويُقال: أصبْتُه بثلاثة أسهُمٍ وِلاءً؛ أيْ: تِباعًا، وتَوالَت إلىَّ كُتُبُ فلانٍ؛ أيْ تتابَعتْ، وقد والاها الكاتبُ؛ أيْ: تابَعَها"، "والولىُّ: المَطَرُ يأتي بعد الوَسْمِيّ"، "قال الأصمعي: الوَلىْ ـ على مِثال الرَّمْي ـ: المَطَرُ الذي يأتي بعد المطر"، "وتولَّيْتُ فلانًا إذا اتَّبعته".

وقد رأيتُ أن أذكر هذه المادة مع مادة "ت ل و" لِما لاحظتُه بينهما من اشتراك في المعنى، واشتراك افتراضي في الأصل مع وقوع إبدال في فاء الكلمة وإعلال في لامها.

مادة "ط ل ع" في لسان العرب

وأما مادة "ط ل ع" فإن اللسان يقدِّم لَها معنيَين:

الأول: الظهور، وما يترتَّب عليه من النظر والرؤية الحِسِّيَّة؛ يقول: "اطَّلَعْتُ الفَجْرَ اطِّلاعًا؛ أيْ: نَظَرْتُ إليه حين طَلَع، واطَّلَعَ: أشْرَفَ على شيءٍ، والطَّلْعةُ: الرُّؤية، وطالَعْتُ الشيءَ؛ أي: اطَّلَعْتُ عليه، وطالَعَه إيَّاه فنَظَر ما عنده".

والثاني: المعرفة بالأمر والعلم بالنبإِ والنظر المعنوي؛ يقول: "اطِّلَعَ على الشيء إذا علِمه، واستطلع رأيَه: نَظَرَ ما هو، وأَطْلَعْتُك على سِرِّي، والطليعة: القَوْمُ يُبعَثون لِمُطالَعة خَبر العدوّ". وفي القرآن ٧ ألفاظ من وزن افْتَعَل وواحد من أفْعَلَ.

والظهور وعَدَم الخَفَاء هما الجانب المشترك في المعنيَين؛ فالمطالعة نظرٌ، وتعرُّفٌ، ثم إعلام وإبانة عمَّا في "كتاب المطالعة".

مادة " ق ر أ " في لسان العرب

وأما مادة "ق ر أ" فلها في اللسان عدد من المعاني والاستعمالات:

الأول: الجَمْع؛ يقول: "قَرَأتُ الشيءَ قُرآنًا: جمَعْتُه، وضَمَمْتُ بعضَه إلى بعض، ومنه قولُهم: ما قَرَأَتْ هذه الناقةُ جَنينًا قَطُّ؛ أيْ: لم تضْطَمَّ رحمُها على وَلَدٍ. وسُمِّيَ قُرآنًا؛ لأنه يجمع السُّوَرَ فيضُمُّها. والقَرْء: اجتماع الدَّم في الرَّحِم في أيّام الطُّهْر. قال حُمَيْد:

أراها غُلامانا الخَلا، فتشَذَّرتْ مِراحًا، ولم تَقْرَأْ جَنينًا ولا دَمَا

"وقال ابن الأثير: تَكَرَّرَ في الحديث ذِكْرُ القِراءة، والاقتراء، والقارئ، والقرآن، والأصلُ في هذه اللفظة: الجَمْع، وكلُّ شيءٍ جمعْتَه فقد قرأتَه، وسُمِّيَ القُرآن؛ لأنه جمَعَ القصصَ، والأمرَ والنهيَ، والوَعدَ والوَعيدَ، والآياتِ والسُّوَرَ بعضَها إلى بعضٍ. وقال أبو إسحاق: الذي عندي في حقيقة هذا: أنَّ القَرْءَ في اللغة: الجَمْعُ، وأنَّ قولَهم: قَرَيْتُ الماءَ في الحَوْضِ - وإنْ كان أُلْزِمَ الياءَ - فهو: جمَعْتُ، والقِرْدُ يَقْرِي؛ أيْ: يجمَع ما يأكلُ في فيه، وقَرَأْتُ القُرآنَ: لَفَظْتُ به مجموعًا".

والثاني: التبْيين، وبه فَسَّرَ ابن عبَّاس رضيَ الله عنهما قولَ الله تعالى:

١١. ﴿فإذا قَرَأْناه فاتَّبِعْ قُرْآنَه﴾ (القيامة).

قال: "فإذا بيَّنَّاه لك بالقراءة فاعْمَلْ بما بيَّنَّاه لك".

والثالث: الجَهْر؛ ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه "كان لا يقرأ في الظُّهْر والعصر"، معناه: أنه كان لا يجهر بالقراءة فيهما.

وبين المعنيَين الثاني والثالث صلة غير خافية؛ فالبيان معنى مُستمَدٌّ من الجهر؛ والجهر وضوح، وعَلَن، وإعلام في غير خفاء.

والرابع: الإبلاغ؛ يقول في اللسان: "وقرأ عليه السلامَ وأقرأه إياه: أبلَغَه.

وهذا المعنى الرابع قريب من الثالث؛ فالإبلاغ والإعلام متقاربان.

والمعنَيان الثالث والرابع: الجهر والإبلاغ، وما يقارنهما من الإعلان والتبيين يقدِّمان المفهوم الأوضح ـ فيما أرى ـ للاستعمال القرآني للفعل "قرأ" وتصرُّفاته، وللفظ "قُرْآن"؛ فهو بمعنى البلاغ والبيان، وبهما وَصَفَ الله تعالى "القُرْآن"، في عدد من الآيات:

١٢. ﴿هذا بَلاغٌ للناس، ولِيُنذَروا به﴾ (٥٢: إبراهيم).

١٣. ﴿هذا بيانٌ للناس وهُدًى وموعظة للمتقين﴾ (آل عمران).

ووصَفَ القرآن بأنه مُبينٌ؛ فقال:

١٤. ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (يس).

١٥. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتابِ وقُرآنٍ مُبِينٍ﴾ (الحِجْر).

ووَصَفَه بالكتاب الْمُبِين؛ فقال:

١٦. ﴿قد جاءكم من اللهِ نورٌ وكتابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة).

١٧. ﴿تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وكِتابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل).

١٨. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتابِ الْمُبِينِ﴾ (يوسف، الشعراء، القصص).

ومع ما يظهر من التقارُب في المعاني بين المواد الأربع نجد لكلٍّ واحدة جانبًا خاصًّا تنفرد به؛ فالتلاوة والولاء لَهما معنى التِباع، والمطالعة لَها معنى التعرُّف والإشراف، والقراءة تختصّ بالبيان، والظهور، والبلاغ، والجَهر.

وفي المعجم الوسيط شرح معاصر للفعل "قرأ" يجمَع بين عدد من المعاني التي وَرَدَتْ في اللسان؛ ففيه: "قَرَأَ الكتابَ ـ قِراءةً وقُرْآنًا: تتَبَّعَ كلماتِه نَظَرًا ونَطَقَ بها".

و ـ تتَبَّعَ كلماته ولم ينطِقْ بها، وسُمِّيَتْ حديثًا بالقراءة الصامتة.

و ـ الآيةَ من القُرآن: نَطَقَ بألفاظها عن نَظَرٍ أو حِفْظٍ.

و ـ الشيءَ قَرْءًا: جمَعَه وضَمَّ بعضَه إلى بعض.

والنطق هو المفهوم الجوهري في القراءة، وعدمُه استلزم التفرقةَ بنعت خاص هو "الصامتة"، وهو أشبه بتعريف سالب في مقابل المفهوم الأصلي: الجهر.

* وتعرُّف معنى مادة "ق ر ا" في العبرية يساعد في توضيح معناها في العربية؛ ولعلَّ أثر الأصل الساميّ المشترك واضح في اللغتين؛ فـ "المعجم العبري الإنجليزي لألفاظ العهد القديم": "A Hebrew And English Lexicon Of The Old Testament" الذي وضع أصله William Gesenius وترجَمَه Edward Robinson يفسِّر المادة العبرية بما يقرُب من المعاني المذكورة في "لسان العرب" فالمعنى الأول لها في العبرية هو(١) الدعاء، النداء، إطلاق الاسم، الإعلان، القراءة، وفي العبرية المتأخرة (الحديثة) تدلّ على ذلك المعنى وعلى القراءة الجهرية، والتلاوة (للقرآن)، ثم يذكر الفعلَ نفسَه في اللغة الآرامية القديمة والسريانية بمعانيه المذكورة، ثم يقدِّم ما للفعل من دلالات فرعية(٢)، ومواضع ورودها في العهد القديم من دعاء وصياح، وإصدار صوت مرتفع لحَمْد الله أو استغاثته، ونداء صاحب اسم باسمه، أو استدعائه، وذكرٍ لله. وواضح أنَّ جوهر المعنى هو "الجَهْر" في مقابل المُخافتة والإسرار.

والمعنى الآخَر هو: الالتقاء والالتحام (كما في القتال مثلاً)، وقد أورد المعجم نظيره في العربية وهو ضمُ أجزاء بعضها إلى بعض، وهو المعنى الأول للفعل "قرأ" في اللسان.

* وإذا كان معنى ضمّ شيء إلى غيره هو الذي نال الاهتمام الأعظم لَدَى اللغويين العرب ولَدَى المفسِّرين فإنَّ المعاني الأخرى قد بقِيَتْ واضحة في العبرية، وأزعم أنَّ الاستعانة بها في فهم "القراءة" في استعمال القرآن وغيره من النصوص تفيد فائدة عظيمة في حلِّ المشكلة التي أوقع النحويون العرب أنفسهم فيها

(1) p. 894.

(2) p. 895.

بافتراضهم زيادة باء الجرِّ في قول الراعي النميري[1]:

هُنَّ الحرائرُ لا رَبَّاتُ أحْمِرةٍ سُودُ المَحاجِرِ، لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ

فالمعنى الذي فهموه من "يَقْرَأْنَ" هو المعنى الذي اكتسبه الفعل في عصور متأخرة، وهو المعروف الآن، ويُراد به: التلاوة، أو مرّ البصر على كتابة بغرض تحويل ما هو مُدوَّن بالرموز الكتابية إلى ما يقابل تلك الرموز من الأصوات اللغوية؛ سواء نطقها "القارئ" بصوت مسموع فصارت قراءته "جهرية"، أم اكتفى بإدراك ما ترمز إليه بغير صوت فصارت قراءته "صامتة".

ولو أنهم التفتوا إلى المعنى المتقدم زمانًا وهو الجهر لاستقام لَهم فَهْمُ التركيب، ولم يحكموا بزيادة الباء، ولم يلجؤوا إلى أن يفترضوا تضمين الفعل "يَقْرَأْنَ" معنى: يَرْقِينَ (من الرُّقْيَة)، أو يتبرَّكْنَ (من البرَكة) لتسويغ الباء المتعلِّقة بالفعل، "وأنه يُقال: قرأتُ بالسورة على هذا المعنى"[2]. والمعنيان غير سائغَينِ في السياق.

ولو أنَّ شُرَّاح الحديث النبوي التفتوا إلى معنى الجهر في "اقرأ" لجاء شرحهم أكثر وضوحًا، ولَما تردَّدوا في فَهْم الروايات المختلفة لحديث "بَدْء الوَحْي" الذي يتكرَّر فيه أمْر جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ: "اقرأ"، ولا يستجيب له مُحمد، فيغُطُّه جبريل ثلاثًا، ثم يتغير الأمْر بعدُ فيكون: ﴿اقْرَأْ باسْم ربِّك الذي خَلَق﴾.

ولا صِلةَ لِهذا التركيب اللغوي بِما فهِم الشرَّاح من الأمْر الذي سبَقه وتكرَّر ثلاثًا.

ولا صِلةَ لِهذا التركيب اللغوي بِما فهموه من جواب محمد ﷺ وكأنَّما عَرَضَ عليه جبريل كتابةً لِيَقرأها، واللهُ الذي أرسلَه إلى محمد يعلم أنَّ محمداً لا يقرأ.

* ولذلك نجِدهم يَعرضون لِما تعنيه "ما": أهُوَ للنفي أم الاستفهام؟ ويلجؤون

(١) ابن هشام: مغني اللبيب: (مغني اللبيب: ٢: ١٦٣)، اللسان: ق ر أ.

(٢) ابن هشام: (مغني اللبيب: ٢: ١٦٣).

إلى رواية: "كيف أقرأ؟"(١) يستظهرون بها على أنَّ جواب محمد ص لم يكن يعني نَفْيَ مقدرته على القراءة، بل كان يعني الاستفهام عن كيفيَّة القراءة؛ فهي قراءة مختلفة عمَّا نفهمه الآن من القراءة، فكان الأمر: ﴿اقْرَأْ باسْم ربِّك الذي خَلَق﴾ أقرب إلى الاتساق، وإنْ يكُن الاستفهام بـ "كيف" غريبًا في مثل ذلك السياق، ولم أعرض له إلاَّ لمناقشة احتمال ورود معنى الاستفهام.

وأمَّا تناولُهم لمعنى النفي الذي فُهِم من "ما" فإنهم لم يجانبوا الصواب فيه؛ فإنَّ وجود الباء في الخبر "بقارئ" دليل قوي على إفادة النفي، لولا أنْ شَغَبَ عليهم ما نُسِب إلى الأخفش من جواز دخول الباء بعد "ما" الاستفهامية.

* ولقد كان اهتمامي موجَّهًا إلى ما رواه البخاري في صحيحه لما تَميَّز به من دقَّة التثبُّت من سَنَده، حتى شهد له العلماء بأنه أصَحُّ كتاب بعدَ كتاب الله.

* ولكنَّ الشرَّاح أشاروا إلى روايات أُخَرَ لحديث "بَدْء الوَحْي" فيها من التراكيب اللغوية ما يُتيح فَهْمًا مختلفًا لم تُتحْه رواية البخاري؛ ففي إحدى تلك الروايات نجد قول الرسول ﷺ: "ماذا أقرأ؟"(٢) وفي أخرى: "ما أقرأ؟"(٣)، وفي ثالثة: "كيف أقرأ؟"(٤)؛ فالروايات الثلاث تُورِد استفهامًا لا نفيًا، وهذا أقرب إلى الحالة التي كان عليها الرسول ﷺ. ولعلَّ أقرب الروايات إلى ذلك هي التي فيها: "ما أقرأ" فإنَّ ورود "ما" جعل احتمالَها للنفي وللاستفهام أمرًا واردًا، ولكنَّ الاستفهام أقرب كما أسلفتُ، ويكون استفهام الرسول ﷺ استخباراً معناه: ماذا أُعْلِنُ؟ أو ما أدعو؟ أو بِمَ أَجْهَرُ؟ ويكون معنى الجواب: أَعْلِنْ، وادْعُ، واجْهَرْ باسْم ربِّك الخالق، لا باسْم معبود غيره؛ فهو الذي ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وهو

(١) شروح صحيح البخاري؛ العيني: عمدة القاري، ابن حجر: فتح الباري، القسطلاني: إرشاد الساري.

(٢) هي رواية عُبَيْد بن عُمَيْر عند ابن إسحاق، ووردت في الشروح الثلاثة.

(٣) وردت هذه الرواية غير منسوبة في شرح العيني، ولم أرَها عند ابن حجر والقسطلاني.

(٤) هي رواية عُرْوَة عند أبي الأسود في مغازيه، ووردت في الشروح الثلاثة.

﴿ ربُّك الأكْرَم ﴾ الذي أنعَمَ على الإنسان بنعمة العِلْم، ويكون حرف الجرِّ الباء في قوله تعالى: ﴿ بِاسْم ربِّكَ ﴾ ـ على هذا التفسير ـ أصليًّا لا زائداً، ويفيد التعدية لا الاستعانة كما ذكر السهيلي ونقل عنه ابن حَجَر؛ قال: "لا تقرؤه بِقُوَّتِكَ ولا بِمَعْرفتك، لكنْ بِحَوْل ربِّك وإعانته؛ فهو يعلِّمك كما خَلَقَك".

* والذي وجدتُه عند شُرَّاح الحديث النبوي وجدتُ مثله لَدَى المفسِّرين؛ فهُم في تفسير "سورة العَلَق" يُوردون ما وردَ من الأحاديث بشأن "بَدْء الوَحْي"، وأهمُّها حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، وهو الذي تناولتُ روايتَه عند البخاري آنفًا، ويضيفون تفسير النص القرآني، وقد يلجؤون إلى التحليل النحوي للآيات ـ أي: الإعراب ـ لكي يوضِّحوا ما يعرضون من أوجه التفسير؛ فـ "القرطبي" يقول: "ومعنى: "اقْرَأْ بِاسْم ربِّك" أي: اقرأ ما أُنزِل إليك من القرآن مُفتتَحًا بِاسْم ربِّكَ؛ وهو أن تذكر التسميةَ في ابتداء كلِّ سورة؛ فَمَحَلُّ الباء من "بِاسْم ربِّك" النصب على الحال. وقيل: الباء بمعنى "على"؛ أي: اقرأ على اسم ربِّك؛ يُقال: فَعَل كذا بِاسْم الله، وعلى اسْم الله، وعلى هذا فالـ "مقروء" محذوف؛ أي: اقرأ القرآنَ وافتتِحْه بِاسْم الله. وقال قوم: "اسم ربِّك" هو القرآن؛ فهو يقول: "اقْرَأْ بِاسْم ربِّك" أي: اسْمَ ربِّك، والباء زائدة كقوله تعالى: ﴿ تُنبِتُ بالدُّهْنِ ﴾ (٢٠: المؤمنون)، وكما قال:

هُنَّ الحرائرُ لا رَبَّاتُ أحْمِرةٍ سُودُ المَحاجِرِ، لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ

أراد: لا يَقْرَأْنَ السُّوَرَ. وقيل: معنى: "اقْرَأْ بِاسْم ربِّك" أي: اذكُر اسْمَه؛ أمره أن يبتدئ القراءة بِاسْم الله"(١).

* استعان القرطبي بالتحليل النحوي عندما أشار إلى زيادة الباء، وعندما ذكر لَها محَلاًّ إعرابيًّا. وقد سبَقه إلى ذلك الزمخشري إذ قال: "محلّ بِاسْم ربِّك النصب

(١) الجامع لأحكام القرآن: سورة العَلَق ٢٠: ١١٩.

على الحال؛ أي: اقرأْ مُفتتِحًا باسْم ربِّك؛ قل: باسْم الله، ثم اقرأْ "(١). ومن بعده أجملَ أبو حيَّان كثيراً من آراء علماء النحو واللغة والتفسير، فقال: "والظاهر تعلُّق الباء بـ" اقرأْ "، وتكون للاستعانة، ومفعول "اقرأْ" محذوف؛ أي: اقرأْ ما يُوحَى إليك. وقيل: "باسْم ربِّك" هو المفعول، وهو المأمور بقراءته، كما تقول: اقرأ "الحمدُ لله". وقيل: المعنى: اقرأْ في أول كل سورة وقراءة: "باسْم الله الرحمن الرحيم". وقال الأخفش: الباء بمعنى "عَلَى"؛ أي: اقرأْ على اسْم الله، كما قالوا في: ﴿وقال اركبوا فيها باسْم الله﴾ (٤١: هود)؛ أي: على اسْم الله. وقيل: المعنى: اقرأ القرآن مُبتدئًا باسْم ربِّك. وقال الزمخشري: محَلّ باسْم ربِّك النصب على الحال؛ أي: اقرأْ مُفتتِحًا باسْم ربِّك؛ قل: باسْم الله ثم اقرأْ. اهـ. وهذا قاله قتادة؛ المعنى: اقرأ ما أُنزِل إليك من القرآن مُفتتِحًا باسْم ربِّكَ. وقال أبو عُبَيْدة: الباء صِلة؛ والمعنى: اذكُر ربَّك"(٢).

* واستعان القرطبي ـ كما فعل اللغويون والمفسِّرون من قبله ـ بالتحايُل النحوي المعروف بالتضمين عندما أوردوا القول بأنَّ الباء بمعنى "على".

* ولم يقدِّم أحد من اللغويين، والمفسِّرين، وشُرَّاح الحديث تفسيراً لُغويًّا لكلمة "اقرأْ"، إلاَّ ما جاء عَرَضًا وهو: اذكُر اسمَه؛ أمره أن يبتدئ القراءة باسْم الله".

وربَّما كان هذا التفسير راجعًا إلى تسمية القرآن باسْم "الذِّكْر" ـ التي تُفهَم من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْر، وَإِنَّا لَهُ لحَافِظُونَ﴾ (٩: الحِجْر) ـ وهي من باب التشريف للقرآن، وليست بالمعنى اللغوي للقراءة.

* وحين ننظر في الاستعمال القرآني للفعل "قرأ" وتصرُّفاته نجد معنى الإعلان والجَهْر وبخاصة حين يقترن بحرف الجرِّ "عَلَى"، وهذه آيات يتَّضح فيها ذلك:

(١) الكشاف: سورة العَلَق ج ٤ ط. الحلبي، ١٩٦٦م.

(٢) البحر المحيط: سورة العَلَق، ط. السعادة، القاهرة، ١٣٢٩ هـ.

١٩. ﴿ ولو نزَّلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ (الشعراء).

٢٠. ﴿ وقُرآنًا فَرَقْناه لتقرأه على الناس على مُكْث ﴾ (١٠٦: الإسراء).

٢١. ﴿ وإذا قُرِئَ عليهم القرآنُ لا يسجدون ﴾ (الانشقاق).

٢٢. ﴿ وإذا قُرِئَ القرآنُ فاستمِعوا له وأنصِتوا ﴾ (٢٠٤: الأعراف).

٢٣. ﴿ وإذا قرأتَ القرآنَ جعلْنا بينَك وبين الذين لا يؤمنون حِجابًا مستوراً ﴾ (الإسراء).

٢٤، ٢٥. ﴿ فاقرؤوا ما تَيَسَّرَ من القرآن ..... فاقرؤوا ما تَيَسَّرَ منه... ﴾ (٢٠: المُزَّمِّل).

جاء الأمر بالقراءة في الموضعَين الأخيرين ٢٤، ٢٥ ولم يكن القرآن قد كُتِب أو جُمِع بين دفَّتَين حتى يُفهَم معنى النظر في الكتابة، والأمر مُوَجَّهٌ إلى المؤمنين: مَن يُحسِن القراءة منهم ـ وهم قليل إذذاك ـ ومَن لا يُحسِنها؛ فمعنى الجهر بالقرآن واضح فيهما.

* ويتَّضِح معنى الإعلان والجَهْر أيضًا في مواضع أخرى؛ منها:

٢٦. ﴿ فإذا قرأناه فاتَّبِعْ قُرآنَه ﴾ (القيامة).

٢٧. ﴿ وإذا ذكرْتَ ربَّك في القرآنِ وحدَه ولَّوْا على أدبارهم نُفوراً ﴾ (الإسراء).

٢٨. ﴿ إنَّ قرآنَ الفَجْرِ كان مشهوداً ﴾ (الإسراء).

٢٩. ﴿ وقال الذين كفروا لا تَسمَعوا لِهذا القرآنِ وَالْغَوْا فيه ﴾ (٢٦: فُصِّلَتْ).

٣٠. ﴿ وإذْ صَرَفْنا إليكَ نَفَرًا من الجنِّ يستمِعون القرآنَ ﴾ (٢٩: الأحقاف).

٣١ ـ ٣٤. ﴿ ولَقَدْ يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ ﴾ (١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠: القَمَر).

٣٥. ﴿ ورَتِّلِ القرآنَ ترتيلاً ﴾ (المُزَّمِّل).

٣٦. ﴿ فقالوا: إنَّا سمِعْنا قرآنًا عَجَبًا ﴾ (الجِنّ).

٣٧. ﴿ إنَّ علينا جَمْعَه وقرآنَه ﴾ (القيامة).

٣٨. ﴿ لَوْ أنزلْنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعًا مُتصدِّعًا ﴾ (٢١: الحَشْر).

* وكذلك إذا نُعِتَ "القرآن" بنِسْبتِه إلى لِسان قوم؛ كما في:

٣٩ ـ ٤٤ . ﴿ قرآنًا عربيًّا ﴾ (٢ : يوسف، ١١٣ : طه، ٢٨ : الزُّمَر، ٣ : فُصِّلَتْ، ٧ : الشُّورَى، ٣ : الزُّخْرُف) .

٤٥ . ﴿ ولَوْ جعَلْناه قرآنًا أعجميًّا لَقالوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُه ﴾ (٤٤ : فُصِّلَتْ) .

فالمفهوم هنا هو ما يُقرَأ مُعلَنًا مجهورًا به بذلك اللسان على ما هو معهود من النطق بالألسنة؛ أي : اللغات المنطوقة .

* ويُفهَم من صيغة "أَفْعَلَ" معنيان : الإبلاغ، والتعديَة؛ أيْ : إيجاد القُدرة على القراءة، والتمكين منها، وهي هنا بمعنى التلاوة الجَهْريَّة .

فالمعنى الأول يتحقق في : "يُقرِئُكَ السلامَ" .

والآخَر في : الإقراء، والْمُقْرِئ ـ لِمَنْ يتولىَّ تدريب المتعلِّمين على قراءة القرآن خاصَّة ـ وقد عبَّر صاحب اللسان عن هذا بقوله : "أقرأَني فلانٌ، أيْ : حمَلَني على القراءة" .

ويصلُح للمعنيَين قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى ﴾ (الأعْلَى)؛ فالإبلاغ، والإقدار على القراءة يُفهَمان من الآية .

* وصيغة "استفْعَلَ" تعني طلبَ القراءة ـ كما في اللسان ـ وهنا يكون الجَهْر مطلوبًا؛ سواء أكانت القراءة عن نظر أم حفظ .

* وإذا خَلا التركيب من الباء و"عَلَى" فُهِم من "قرأ" وتصرُّفات المادة معانٍ أخرى بجانب الإعلان، والجَهْر، والبَيان؛ كالتلاوة، والاطِّلاع على ما في الكتاب، وتتَبُّعه؛ كما في قول الله سبحانه :

٤٦ . ﴿ فإذا قرأتَ القرآنَ فاستَعِذْ بالله ﴾ (٩٨ : النحل) .

٤٧ . ﴿ حتَّى تُنَزِّلَ علينا كتابًا نقرؤه ﴾ (٩٣ : الإسراء) .

٤٨ . ﴿ فاسأل الذين يقرؤون الكتابَ من قبلك ﴾ (٤٩ : يونس) .

٤٩ . ﴿ فأولئك يقرؤون كتابَهم ﴾ (٧١ : الإسراء) .

٥٠ . ﴿ اقرأْ كتابَك ﴾ (١٤ : الإسراء) .

٥١ . ﴿ هاؤم اقرؤوا كتابيَه ﴾ (الحاقّة) .

٥٢ . ﴿ وأن أتلُوَ القرآنَ ﴾ (٩٢ : النمل) .

* وإذا قَرَنَّا ما قدَّمتُ من معنى الإعلان والجَهْر للفعل "قرأ" وتصرُّفات المادة إلى معنى الدعاء والنداء في قوله تعالى :

٥٣ . ﴿ ذلكم بأنه إذا دُعِيَ الله وحده كفرتم، وإنْ يُشرَكْ به تؤمِنوا ﴾ (١٢ : غافر) .

تبيَّنتْ صِحَّةُ ما ذهبتُ إليه؛ فإعلان العبادة لله وحده دون ما كان المشركون يعبدون معه أمرٌ مُماثل للقراءة باسْمه التي وردتْ في أول آية نزلتْ من القرآن، والقرآن هو إعلان، ونداء للناس، ودعاء لَهم إلى عبادة الله وحده، أُمِر محمد ﷺ في تلك الآية بأن يدعوَ باسْمه، ويُعلِنَه، ويجهَرَ به، ويُعلِنَ له الرُّبوبيَّة؛ فهو ـ لا غيرُه ـ الخالق الأكرم، الذي وَهَبَ الحياة المادية للإنسان بأنْ خلقه من عَلَق، ثم وهب له عِلْم ما لم يكن يعلم. افتُتحت السورة بالأمر بإعلان اسم الله : ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ ﴾، واختُتِمتْ بالأمر بالسجود لله، والتقرُّب إليه : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (العَلَق)، ليكون ذلك تطبيقًا عمليًّا، واعترافًا فعليًّا بما جاء في مطلعها .

والدعاء مِمَّا تَعنيه القراءة؛ أي : الإعلان، كما في قوله تعالى في شأن مَنْ يُتبَنَّى :

٥٤ . ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ ﴾ (٥ : الأحزاب)؛ أيْ : أَعْلِنُوا نَسَبَهُمْ إلى آبائِهم لا إلى مَنْ تبنَّوْهم .

ثلاث إضافات لها ما يسوِّغها :

* الأولى :

هَبْنا سلَّمنا مع اللغويين والنحويين والمفسِّرين والمحدِّثين أن المراد من "اقرأ" هو ما قد تبادر إلى أذهان معظمهم مما هو متعارف في عصرنا؛ أعني مرّ البصر على كتابة لتحويل ما هو مُدوَّن بالرموز الكتابية إلى ما يقابلها من الأصوات اللغوية؛ سواء

نطقها "القارئ" بصوت مسموع فصارت قراءته "جهرية"، أم اكتفى بإدراك ما ترمز إليه بغير صوت فصارت قراءته "صامتة".

أفما كان على من تلقَّى الأمر بهذا النوع من القراءة أن يبادر إلى تعلُّم الكتابة والقراءة، وما ذُكِر شيء من ذلك في السيرة؟ بل كان له ﷺ عدد وفير من كتَّاب الوحي يتولَّون التدوين وتلاوة ما دوَّنوه للتثبُّت من موافقته لما أَمْلَى عليهم، وبقِيَ الأمر كذلك حتى اكتمل نزول الوحي، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

* الثانية:

حفَلت الفترة المبكرة من خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بأحداث فريدة في التاريخ الإسلامي؛ وكانت حروب الرِّدَّة وما تلاها من جمع المصحف من أبرز ما فيها، والأمران متصلان؛ فمقتل خمسمائة أو ستمائة من "القُرَّاء" في اليمامة نبَّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى وجوب المبادرة إلى جمع القرآن في مُصحف؛ خشية ذهاب الحُفَّاظ الذين كانوا هم "قراء" القرآن.

فما كانت كلمة "القُرَّاء" تعني، وما كان لديهم مصاحف؟ لقد كانوا حُفَّاظًا يتلون ما يحفظون، أي: يقرؤون جهرًا من حفظهم، ولذلك ظهرت الحاجة إلى تدوين ما يحفظون؛ لِكَيْلا يتعرض القرآن للضياع. فالقراءة هنا غير النظر في كتابةٍ لإدراك ما تمثِّله الرموز من كلمات، وإن يكن منهم مَن يعرف ذلك.

* الثالثة:

كان اللفظ المستعمَل لوصف مَن اكتسب معرفة القراءة والكتابة في صدر الإسلام وزمن تالٍ هو "كاتب"، وكان يوصف بأنه "يكتب"، ويُفهَم من ذلك ضِمنًا أنه كان "يقرأ" ما هو مكتوب.

المصادر

* ابن حجر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري، نشرة محب الدين الخطيب، ط. دار المعرفة، بيروت، بلا تاريخ.
* ابن منظور: لسان العرب.
* ابن هشام (عبد الله بن يوسف الأنصاري، النحوي): مغني اللبيب، تحقيق د. عبد اللطيف محمد الخطيب، ط ١، السلسلة التراثية (٢١)، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، سنة ٢٠٠٠م.
* ابن هشام (عبد الملك): السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، ط. الحلبي، القاهرة، سنة ١٩٣٦م.
* أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، ط. السعادة، القاهرة، سنة ١٣٢٩هـ.
* البخاري: الجامع الصحيح، المطبعة الأميرية، القاهرة، سنة ١٣١١هـ.
* الزمخشري: الكشاف، ط. الحلبي، القاهرة، سنة ١٩٦٦م.
* العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ٢٠٠١م.
* القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة، سنة ١٩٥٢م.
* القسطلاني: إرشاد الساري شرح صحيح البخاري، ط ٧، المطبعة الأميرية، القاهرة، سنة ١٣٢٣هـ.
* William Gesenius : "A Hebrew And English Lexicon Of The Old Testament" Translated by Edward Robinson . Oxford at the Clarendon Press (1959) .